راسخة في الذاكرة ... أدبياً وإنسانياً

فيصل دراج

القدس «مدينة الله»، يتوازع رموزها المسيحيون والمسلمون واليهود، فلسطينية هي وجزء من تاريخ فلسطين، قبل أن يقنع الظلمُ المنتصرُ الإسرائيليين بأنها يهودية تخص دولتهم وحدها التي انتشئت عام 1948.

تمسّك الفلسطينيون، قبل نشوء الدولة العبرية وبعده، برمزية القدس، كتبوا عنها القصائد بعد وعد بلفور، وبعد أن تبقى لهم جزء منها في عام 1948، وواجهوا تهويداً مجتهداً بعد 1967، وانطلقوا يدافعون عنها بعد التصريح الأميركي الأخير، كانت المدينة لهم هوية، ولا تزال، عاصمة دولتهم المقبلة، كما يقولون، ومرآة لأطياف قديمة متجددة، يتصرون برمزيتها المقدسة كفاحهم المفتوح، مؤمنين بأنها مدينة منتصرة على أعدائها، مرددين: القدس باب السماء.

ولعلّ بداية فلسطينية القدس العربية، التي أطلق اسمها على جيوش عربية وغير عربية، ما جعلها حاضرة في ذاكرة الثقافة العربية، والفلسطينية منها بخاصة، وما أعطاها مكانا رحبا في الروايات والقصص وقصائد بلاغية لا تنتهي، وفي سير ذاتية امتدت من أيام الانتداب البريطاني، رائد التآمر على فلسطين، إلى الشتات الراهن، الذي دفع بفلسطيني العراق، قبل عقد من الزمن، إلى الهجرة إلى البرازيل وغيرها من بلدان أميركا اللاتينية.

ساوى الفلسطيني النجيب جبرا إبراهيم جبرا بين القدس، التي عاش فيها قبل «النكبة»، وما لا يمكن التعبير عنه، كما لو كانت مدينة ــ معجزة، فهي الذهب والنجيل والزمرد والفضة في روايته «صيادون في شارع ضيق»، وهي الصخر المجلل بالقداسة والعبق القديم المتوّج بالغموض، وهي «أجمل مدينة في الدنيا» في روايته «السفينة». وهي موقع اللقاء والأرواح النبيلة المتمردة التي أوجدت وليد مسعود، الشخصية الممتدة من تربة القدس الحمراء إلى أبواب السماء.

جمع جبرا بين الجمال والمقدس والوفاء، واعتقد أن «من يلوذ بالجميل يشبهه»، متكئ على القدس وتعاليم الرومنطيقيين. لم يكن في نثره الشعري بعيدا من خليل السكاكيني، أشهر مرب عرفته فلسطين قبل الشتات، ذلك المقدسي الذي صالح بين الأديان، وكان يردد: «لو ترك الناس جميعا القدس لبقيت فيها وحدي»، ولذلك فارق الدنيا بعد خروجه بقليل ودفن في القاهرة.

الفلسطيني الآخر، الذي ينتمي إلى جيل آخر، حسن حميد رحل بذاكرته إلى المدينة المقدسة وكتب رواية «مدينة الله»، التي رسم فيها القدس كما تراها الروح، مدينة من ورود وندى، قريبة من الله بعيدة من الشر، خيرها يتصرها، كما ذهب المؤرخ الفلسطيني محمد عزة دروزة، الذي اشتق مستقبل «اليهود» من ماضيهم المهزوم.

ومع أن جبرا وحميد وضعا ما يُرى جانبا، واكتفيا بصورة المدينة في الروح والمتخيّل المطمئن، فإن الفلسطينية– الأردنية ليلى الأطرش أثرت في روايتها «ترانيم الغواية» أن تقرأ حاضر المدينة بمنظور دنيوي، حيث ينظر الفلسطينيون إلى الحياة بعتب وروح أسيفة، بعدما تركوا أمام «المتاريس»، في انتظار محتلين مدججين بالسلاح.

لم يسأل المثقفون الفلسطينيون عن أديان المدينة، وساءلوا عن تاريخها، إذ التاريخ أكبر من الذين ينتسبون إليه. وفي هذا التاريخ كان الفلسطينيون يؤمنون بالمسيح والنبي محمد ومقدسات المدينة، فاخلصوا لها كمكان ارتبطت به هويتهم الروحية والمعنوية، قبل أن يصادروا الهوية التاريخية بمعطيات جزئية ومجزوءة. فقد كانت سميرة عزام، كما السكاكيني وجبرا، مسيحية، وكان دروزة والشاعر ابو سلمى وإبراهيم طوقان مسلمين. والتمييز ناقل لا معنى له، كان السكاكيني عاشقا للقدس واللغة العربية وعضوا في المجمع اللغوي في القاهرة، وكانت سميرة عزام لا تقايض هويتها الفلسطينية بأية هوية أخرى، وكان أبو سلمى، زيتونة فلسطين، كما يقال، يسأل الحاكم العربي: لماذا يريد أن يودّع القدس قبل أن يدافع عنها؟

توقف إدوارد سعيد طويلاً أمام «زحف التهويد»، على المدينة، بعد 1967، قبل أن يحتلها كلها، وحاجج محافظها «كوليك»، الذي قال ذات مرة: «مع الوصول إلى عام 2010 لن يتبقى من قدس العرب الشيء الكثير». أراح رئيس الولايات المتحدة «ترامب» محافظ القدس السابق، واعلن المدينة عاصمة يهودية موحدة إلى الأبد. دعا سعيد، المثقف الإنساني النزعة، إلى مدينة يتحقق فيها حوار الثقافات والأديان، محتجا على تصور صهيوني يحوّل القدس إلى ملكية خاصة لليهود ويعتدي، كما يشاء، على رمزيتها المتسامحة. كان عمر بن الخطاب حين دخل القدس، فاتحا، قد سمح لغير المسلمين، أن يستانفوا حياتهم بطمأنينة وأن يمارسوا معتقداتهم بحرية وسلام. ولم يكن سلوك صلاح الدين الأيوبي مختلفاً، بعدما أعلى من التسامح والقى ثقافية المنتصر والمهزوم.

حين تحدث الشاب محمود درويش، شعرا عن «القدس العتيقة»، كان يحاور أطياف أمكنتها التاريخية المقدّسة: «جامع الصخرة، باب العمود، كنيسة القيامة وقبة المعراج...»، ويستعيد ما تعلم عنها طفلا في عائلة فلسطينية، تساوي بين المدينة والمقدس والذاكرة وتاريخ مدينة زارها عمر بن الخطاب ولم يزر غيرها، واضعا القدس فوق دمشق وبغداد وخرسان، كما لو كان الخليفة الثاني قال برمزية المدينة، وساوى بين رمزيتها والتصالح بين البشر.

وسواء عرف الفلسطينيون تاريخ المدينة، من ريتشارد قلب الأسد والحروب الصليبية وصولاً إلى الكولونيل البريطاني لورانس، الذي اعتبر القدس عام 1916 مدينة للسواح والمتسولين، أم عرفوا عنه القليل، فإن صورة مدينتهم صدرت عن «ثقافة البداهة»، الموروثة، وعن تاريخ يومي عاشه الأجداد والأبناء والآباء، علمهم أن القدس مركزهم الروحي، وسجّل في ذاكرتهم أسماء أماكن شهيرة زاروها، أو سيزورونها في مستقبل قريب، مثل: باب العمود والحرم الشريف وباب الساهرة، واسماء أخرى أدرجتها سحر خليفة في أكثر من رواية، قبل أن يتذكروا معركة «باب الواد» التي قضى فيها شهيدا عبد القادر الحسيني، «الفلسطيني الأمع»، بلغة المؤرخ الفرنسي هنري لورانس.

بيد أن لفضاءات المنتصر والمهزوم مفارقاتها، التي تمحو كتابة قديمة بكتابة واقدة، محشوة بالأكاذيب، كان يقول شيمون بيريز: «إن القدس تشكّل جزءاً من ذاكرة طفولتي». لم يولد بيريز في فلسطين، بل اشتق ولادته من «الحفريات»، التي تبرهن عن يهودية المدينة بعظام نخرة، تحرسها الدبابات والمدفعية الثقيلة، سخر الإنجليزي الفلسطيني الأصل كارل صبّاغ من مفارقات القوة والضعف والإدعاءات الكاذبة في كتابه «فلسطين ـ سيرة شخصية»، حين سأل صاحب مخزن يهودي في صفد عن حواري المدينة: وأجاب «أعرفها كلها فقد وصلت إليها من كاليفورنيا قبل بضعة سنوات»، وأجابه الفلسطيني: «إن أبي وأجدادي ولدوا في هذه المدينة».

ينظر الشاعر الفلسطيني عز الدين المناصرة إلى القدر الفلسطيني: «وأرضها رعب وقتل، القدس عاصمة الدماء، يسوقها وغد ونذل...». يعطي المناصرة للمدينة المقدسة أبعاداً تتجاوز أبعادها الجغرافية، تضم الأرض والسماء معا ويعود فيعطيها أبعادا أرضية كابوسية مصنوعة من الدماء وإرادة الأوغاد، وقد يسأل الشاعر، كما غيره من الفلسطينيين، ما الذي يجعل من عاصمة السماء عاصمة للدماء؟ وما الذي سمح لشعون بيريز أن يتحدث «كمقدسي قديم»؟ تنحرف الأسئلة المنطقية وياتي «عبث الأقدار». وتتراجع الأقدار العابثة وتاتي إرادة القوة، حيث من لا يملك يعطي لمن لا يستحق، والرئيس الأميركي يغتصب شهادات التاريخ ويسلم مفاتيح «المدينة المقدسة» إلى رئيس صهيوني.

وإذا كان الفلسطينيون في رواية ليلى الأطرش عانوا القدر الذي لم ينصر مدينتهم، فإن المناصرة رجع إلى الخليقة عمر وآخيره: «هذه الأرض تعرفنا جيدا، والنقوش القديمة تعرفنا جيدا، والبلاغة محفورة، في النصوص، منذ كان القماط وكان الكفن». أما المواجهة بين المقدس والمدنس، فلها أحاديث أخرى، وفيها وعود ودماء وأحزان وانتفاضات وبلاغة، وقنابل حارقة وإرادة فلسطينية تموت ولا تموت.

عن «الحياة» اللندنية

حديث شائك 3

متناقضات المرأة

د . إيناس عمر

صباحكم نغمة هادئة تستقي لحنها من ترنيمة انفاسكم
وبعد
غلبني الصمت
وأقطعه اليوم حيث تبحر معا في عوالم المرأة ومتناقضاتها
فهي سيدة الإباء المتباينة بلا منازع
فرغم بساطتها فهي شديدة التعقيد
وإن كانت عميقة الأفكار ، فهي مازالت طفلة الى حد بعيد
الممكن والمستحيل معا يُدعى امرأة
قد تفاجئك برفضها لفكرة ، ولكن الاحتفال بعيد الحب ..
وإذا أهديتها عطرا ربما تذمرت متحفزة لرأيها ،
بدعوى اعتناقها المبدأ جملة وتفصيلا ..
ولكن اذا أغفلت ان تهديها شيئا في هذا اليوم ،
فسوف تشعر بالاستياء الشديد لنسيانك إياها ..
كيف تكون ولا تكون بذات الوقت
تلك المرأه يا سادة
تتوجه اليك بالحديث عن مدى قوتها وهي في أوج ضعفها
هي لا تنحني ، هي فقط تمرر الكلمات بعقلها لتمنحها فكره اخرى لا تهابها
الخوف سيد أفكارها إذا تعلق الامر بمن تحب ..!
وقد تشعرك بثقتها الأعمق تحوك ، وهي لا تثق بك قط
وربما كنت أنت الإنفاس الأخيرة بصدرها ، ولكنها لن تعترف لك .
لا تعتمد بوحها كشئ تجزم به ،
فقد تكون كلمه الكره تعني عشقا ،
والبعد هي ان تظل ..
المرأه فعل فتحقق في عاطفه تتجسد ،
وحين تواجهه المرأه فهي ذاك الضعيف الذي يتوارى في قوه
لا يملكها ،
وهذه همسة في أذنك أيها الرجل ،
حين تجادلك امرأه دون الفكرة ، اعلم انها تسعى فقط
للحديث معك والاستئناس بك وليس شيئا آخر ..
تريد هي امتلاءا غير مشروط ،
لا يُطلب لكنه يُمنح ويصدق ،
ففنجان قهوه
تتشاركه معك اهتمام
من نوع آخر تترجمه
بمعنى أفتقدك ،
وقد تتسبب متابعتك
لمباراة مع صديق في
ثورة عارمة ..
وما لا يفهمه الرجل انها لم تود
تقيدك كما تظن ، بل الامر أنها تشعر بالغيرة الشديدة ،
لعدم التفاتك لها وترجمته أريدك ..
ولو هاتفتها بين الشوطين او عند تسجيل هدف ، لتذكرها
فقط انها كل كيانك او تشعرها بمدى افتقادك لها ،
يكفيها هذا لتشتعل كنجمة لا يخمد وميضها ..
وحين يكون البوح رغبة ، فإنها لن تفعل .. ستظل تلتف
حول المعنى انتظارا منك ان تدركه وحدك ،
ماذا يعنيني إذا قلت لك ما أود ؟
هذه هي الفكرة التي تؤرق المرأة أكثر
قد تدعي المرأه أنها لا تبالي ، بل وتمنحك كل الوقت لتفكر ،
بينما هنالك بأحشائها بركان ينتفض ..
لذا عزيزي الرجل هذه همسة أخرى لك ،
لا تجعل امرأه تنتظرك قط ..
كن كريما معطاء، في الوقت ، مجاملا ودودا ، قليل الصراحة ،
ومنصتا دون قيد ..
ولا تغفل عنها فهي ترقبك عن كثب ،
وربما تجاهلها اهتمام ..
وتصنعها الصمت معك هو حديث تأمل ان تبدأه انت ..
كل لا لها ربما هي نعم مغلفة بالرفض ..
لذا كن مراوغا وتوقع معها كل ما لا تتوقعه ،
فكهذا نحن النساء، الشيء والضد ..
وبعد ... قد انتهيت
ومازال حديثنا معا قيد الفكرة حتى يحين الوقت .

حيث التماثل وتصحّر المعنى

إدريس أبركان

المدرسة هي عملية إعداد للمجتمع، وحين تكون لها مثالب فهذه سوف تظهر مضخّمةً بعد فترة في إطار أوسع. الفردانية، التماثل، التعلّم عبر قناة واحدة وغيرها، جميعها مثالب تصنعها المدرسة ونقف عليها بأشكال أخرى في المجتمع، ولكن الأخطر من بينها هي فكرة أن يجري تصوير المتعة كمبدأ غير مهني.

سنغيّر المجتمع بأكمله لو أننا قلبنا الآية: أي لو وضعنا الاستمتاع فوق المنفعة الإقتصادية. يجدر هنا أن نذكّر بجذر كلمة "عمل" (Travail بالفرنسية) في اللغات المتفرّعة عن اللاتينية؛ إذ تنحدر مباشرة من كلمة Tripalium والتي تعني أداة كانت تستعمل في الزمن القديم لإخضاع العبيد المتمرّدين على العمل، وفي استعمالات أخرى كانت تستخدم لتهدئة الخيول الجامحة.

هذه الفكرة متغرسة في لاوعينا الجمعي، أصبح العمل عبارة عن تشابُه مفروض، وحين يكون كذلك فهو مؤلم بالضرورة. ليس ثمة ما هو أكثر خطأ من تأثيم العمل بمتعة، على العكس ذلك هو المطلوب: أن نُحبّ الشّيء الذي نعمله، لكن، هيهات، فلا يزال ذلك في عداد النادر.

في الوقت الذي تعتبر مجتمعاتنا أنها متحضّرة على خلفية أن الماء يصلها في حنفيات، وأنوار التيار الكهربائي على بعد ضغطة زر في كل زاوية من البيت، يجدر التنبّه إلى وجود مياه أخرى ينبغي أن تصل إلينا، وأنه يوجد شكل آخر من التيار الكهربائي عليه أن يغذّي مدننا وأن يصل إلى أماكن عملنا؛ إنه تيّار المعنى.

انظر إلى مكاتب الموظفين، وإلى المدارس، وفي الأحياء، هل تجد أن الناس يعرفون لماذا يشتغلون؟ هذه الأماكن قد تبدو للناظر مرتّبة، ونظيفة، ولكنها في العمق مُهملة ومنفرة، إنها تعاني من تصحّر المعنى، وصحارى المعنى هي أماكن الانسلاخ النفساني، إنها في كلمة غير صحّية، فحيث لا يسري المعنى، يتعفّن الناس ببطء وقطاعة غير مرئية.

مرّة أخرى لنعد إلى اللاتينية القديمة، وفيها نجد أن مفردة Animus تعني في نفس الوقت "معنى" و"روح". غير أن الكثير من أماكن العمل بلا أي أثر للروح، الذريعة المرفوعة دائما هي الإنتاجية، وهكذا تصبح هذه الأماكن فضاءات ملائمة لإنتاج ظواهر من الانهيار العصبي إلى الانتحار.

إذا اعتبرنا أن الإنسان مثل نبتة؛ لنتساءل كيف يجري التعامل معها؟ ثمة تلك الرعاية والمتابعة المنسجمة مع الطبيعة والتي تنتظر الثمرة في موعد نضجها، وثمة الضغط عليها كي تنتج ثمرتها، الضغط منهج خطي، قائم على التوقع، سهل الإدارة، ولكنه في نهاية الخط: قاتل. أما الرعاية فهي لا تقوم على التوقع، غير خطية، صعبة الإدارة، ولكنها في المحصلة غير قاتلة، بل إنها توفر عملية إنتاج لانهائية بمعنى ما.

البيروقراطيات تحرص دائما على الضغط، لأنها الطريقة السهلة، والطريقة السهلة كثيراً ما تخفي عنّا الطرق المؤدية إلى الإبداع والابتكار. البيروقراطية مهيكلة حول هدف وحيد: أن تبيض في نهاية فترة مح

× من فصل بعنوان "أن نلعب، أن نعمل، أن نعيش"، من كتاب "حرّر ذهنك"، لـ إدريس أبركان.

** ترجمه عن الفرنسية: شوقي بن حسن

ضمن فعاليات احتفالية عيد العلم ال 15

جامعة القاهرة تكرم غدا علماءها ومفكريها الحاصلين على جوائز الدولة

تقيم جامعة القاهرة غدا الثلاثاء ، احتفالية عيد العلم الـ15، والتي يتم خلالها تكريم عدد من علمائها ومفكريها وباحثيها الحاصلين على جوائز الدولة بأنواعها وجوائز الجامعة في مختلف المجالات العلمية في عام 2016.

وتقام الاحتفالية بقاعة الاحتفالات الكبرى بالجامعة، برعاية الدكتور محمد عثمان الخشت رئيس جامعة القاهرة، وبحضور نواب رئيس الجامعة، وعمداء الكليات، وأعضاء هيئة التدريس، والطلاب، إلى جانب عدد من الشخصيات العامة ورجال الدولة.

وتطلق جامعة القاهرة اسم الراحل نجيب محفوظ على دورة عيد العلم للجامعة هذا العام، تكريمًا لخريجيها الرواد.

ومن أبرز المكرمين، «الدكتور محمد أحمد أبوالغار بكلية الطب في جائزة العلوم الطبية والصيدلة، والدكتور عمرو عدلي نائب رئيس الجامعة لشؤون الدراسات العليا والبحوث في جائزة العلوم الهندسية، والدكتور جمال عصمت بكلية الطب في جائزة العلوم، والدكتورة عواطف عبدالرحمن بكلية الإعلام في جائزة التميز» وغيرهم.

وتبدأ مراسم احتفالية عيد العلم، بطابور عرض لمجلس الجامعة، ثم السلام الجمهوري، يليه تلاوة لبعض آيات من القرآن الكريم، ويلقي كلمة المكرمين الدكتور جمال عصمت الحاصل على جائزة النيل، ثم كلمة الدكتور سعيد صو نائب رئيس الجامعة لشؤون خدمة المجتمع وتنمية البيئة، ثم يلقي رئيس جامعة القاهرة الدكتور محمد عثمان الخشت كلمته، ويعرض بعد ذلك فيلم وثائقي، لتبدأ مراسم تكريم 42 مفكرًا وعالمًا وباحثًا.

وقد انهت الجامعة استعداداتها الخاصة باحتفالية عيد العلم وأعدت كتابًا تذكاريًا، متضمنًا أسماء المكرمين وسيرتهم الذاتية.